

بداية .. ومنذ الساعة الاولى ، تحولت الحرب من حيرب بين الجيشين السوري والمصري وبين جيش الصهاينة ، الى **حرب قومية شاملة** . من باب المندب في الجنوب الى اللاذنية في الشمال ، ومن بغداد في الشرق الى الرباط في الغرب ، كل القوى دخلت المعركة ، الجماهير والمؤسسات ، الجيوش والاقتصاد ، المتخاصمون والمتحدون ، الرجال والنساء . لم يبق في الامة من لم يساهم في الحرب بغض النظر عن الدوافع او المفاهيم أو حتى التوقعات . وكانت الايام العشرين درسا لمن يفكر في سبل تحقيق الوحدة العربية ، ليس بغير القتال ، ضد الاستعمار وبالذات ضد اغتصاب فلسطين .

ثم هي لم تعد الحرب النظامية الصرفة .. فلانها قومية اكتسبت من فورها طابعها شعبيا عبر عن نفسه بمختلف الاشكال ، من طوابير المتطوعين للخدمة المدنية ، الى الانضباط الفاهم لقيود الحرب ، الى الاستنفار اليقظ لمحاولات العدو النفسية والعسكرية ، وبلغت ارقى أشكالها بلا جدال في موقف جماهير الارض المحتلة الذي حرم العدو فجة ، وفي اخرج لحظات نشاطه ، من خمسين الفا من العمال رفضوا التعاون معه منذ بدء القتال ، وعاشت الارض المحتلة ما يشبه العصيان المدني العفوي مما القى الرعب في نفوس المحتلين . بالاضافة الى الدور الذي قامت به قوات الثورة الفلسطينية ( الارادة المنظمة المسلحة للجماهير العربية ) والتي اثبت مقاتلوها انهم ، وبعد سنوات ثلاث من محاولات التصفية الجسدية والسياسية والترويض الاجتماعي ، ما يزالون اهلا بثقة الامة ، وقادرين على الاندفاع بشجاعة وتفان نحو الارض التي حرموا طويلا من التوجه نحوها .

وعندما توقفت الحرب كان طبيعيا ان تتشعر الجماهير بالدهشة والغضب والمرارة والتوجس وكانت هذه المشاعر ايضا تمثل اعلى درجات وحدتها القومية واستنفارها العفوي .

الحصاد المباشر للحرب الرابعة كثير ، ومنظّل بذورها التي ارتوت بدماء الشهداء تعطي المزيد على الساحة الجماهيرية . تقف الجماهير العربية كلها الان في ارقى حالات الاستعداد والتهيؤ للنشاطات الثورية المختلفة سواء كانت موجهة مباشرة ضد العدو الصهيوني ( الحرب ) . او لتغيير واقعها الاجتماعي ( مقاومة كل ثقافة اجتماعية او سياسية تنفذ منها سياسة الاستسلام ) . **الجماهير تتوقع من ادواتها السياسية ( التنظيمات والاحزاب والحكومات ) ان تعبر عن ارادتها ، فان لم تفعل فان الجماهير لا بد ستبحث وتبني لنفسها ادوات تعبير نضالية اخرى غير التي تعجز وتسقط .**

وفي الوقت نفسه تزايد بشكل كبير دور المؤسسات الحكومية وتأثيرها على مسار الحركة القومية ذلك ان الحرب بدأت كما ذكرنا ، والساحة خالية تقريبا من المنظمات الجماهيرية الفعالة . لذا تكاد تنفرد المؤسسات الحكومية الان بالنشاط والحديث باسم الامة كلها . وذلك برغم ان « رصيد » قوى الثورة الفلسطينية جماهريا قد زاد بشكل كبير نتيجة ترجيح « الحرب » لوجهة نظرها الخاصة بأن القتال وحده هو الذي يحرر الارض . وهي وجهة النظر التي دافعت عنها بصمود رائع طوال السنوات الماضية كلها . الا ان عدم تطور الاشكال التنظيمية للنضال الجماهيري القومي حول النضال الفلسطيني في السنوات الماضية ، أدى الى غياب التنظيمات العربية الفعالة التي يمكنها التعبير عن اتساع رقعة النضال القومي المباشر ، والتي تحصد ثمار الحرب القومية التي دارت (١٥) كما ان الثمار المباشرة السياسية للحرب الرابعة ، حتى الان هي مزيد من الحصار الرسمي حول الارادة الحرة للنضال الثوري الفلسطيني ، ومحاولة الضغط عليها واستدراجها الى مقتلها بقبول الحلول الوسط .